أزمة المواطنة في شعر ابن لَنْكَك البصري (ت ٣٦٠هـ)
(دراسة تحليلية)

م. د. رائد عكلة خلف الدليمي Read Okleh Khalaf Aldolemi

(المدرس في كلية الآداب)

جامعة الانبار ـ قسم اللغة العربية

م. د. نهاد فخري محمود الشَّمري Nihad Fakhri Mahmood Al-Shammary

(المدرس في كلية الآداب)

جامعة الانبار ـ قسم اللغة العربية

الملخص: يتحدث هذا البحث عن ظاهرة نجدها بارزة في شعر ابن لَنْكِك البصري، وهي أزمة المواطنة التي انعكست آثارها على حياته بشكل عام وعلى شعره بشكل خاص، فظهرت ملامحها بروح التمرد والرفض للواقع المعاش، فضلاً عن عدم التوافق مع المجتمع والسلطة السياسية ، فكان الشعر هو المتنفس الوحيد له، إذ عبّر به عما يشعر من أزمة خانقة فرضت نفسها على الشاعر في محورين تمثلا بالجانب الموضوعي واللغوي إذ ترجما هذه الأزمة، وما تحويه من أساليب أخذت تكشف عن الجوانب النفسية والاجتماعية التي ضاقت بها حياته.

The Citizenship Crisis in the Poetry of Ibn Lenkik AL-Basri

Abstract

This paper talks about a distinct phenomenon in the poetry of Lenkik Al-Basri that is the citizenship crisis, which was reflected in his life in general, and in his poetry in particular. Therefore, its features were shown up through disobedience and refusal of the living reality. In addition, there was no agreement with the society and the political authority. As a result, the poetry was the only breathe for him where he expressed a crisis in his poetry, which imposed itself on the poet in two pivots, which were represented in the objective and linguistic aspects. These found out this crisis and the methods that led to discover the psychological aspects which were confined to his life.

المقدمة:

لا ريب أنَّ كلَّ انسان يرتبط بوطنه ارتباطاً مباشراً ، وتجمعه معه علاقة حميمة، وهذه العلاقة يمكن رصدها من منظورين مادي ومعنوي، فتنشأ علاقة مشتركة أساسها المصلحة المتبادلة بين الفرد والجماعة ، كونها قائمة على تحقيق التعاون والتضامن في دفع المضار وجلب المنافع ؛ ليتحقق بذلك مفهوم المواطنة.

والمواطنة اسم يدلُّ على المشاركة والمداومة والاستمرار، ومن ملفوظات المواطنة – أيضًا – أوَطَنَ وواطَنَتُ، وَوَطّنَ نفسه على الأمر، وكلّ مكان اتخذه الإنسان لأمرٍ فهو موطن له[١]، وعُرِّفت حديثًا بأنَّها نزعة ترمي إلى اعتبار الإنسانيّة أسرة واحدة وطنها العالم وأعضاؤها أفراد البشر جميعاً، وهذه المواطنة تَفرِض على كل الشعوب احترام حقوق الإنسان، وعدم التمييز بين أبناء الوطن الواحد وسكانه الذين ينتمون إليه على أساس الدين أو اللغة أو العنصر أو الجنس، كون المرء مواطناً من مواطني دولة له فيها حقوق وامتيازات تكفلها له[٢]، نفهم من ذلك أن المواطنة هي شكل من أشكال الانتماء والتواصل، بيد أن هذا التواصل يمكن أن يكون بمعزل عن الواقع، إذا ما تعطلت المصلحة وكثرت التناقضات بين ما يريده هذا الفرد وبين ما يريده الآخرون أو الواقع العام؛ ليكون هذا الفرد أمام أزمة تنغص عليه ذلك الشعور بالمواطنة [٣].

وهذه الأزمة في منظور أهل اللغة: تعني الشدَّة والضيق فضلاً عن الجدب والقحط [٤]، واصطلاحًا هي(الزمان الذي تصبح فيه جميع القيم المتوارثة موضوع شك أو تجريح وتتعرض للانهيار)[٥]، وعلى

(١) ينظر: تهذيب اللغة، أبو منصور، الأزهري الهروي:٢١/١٤
(٢) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د .أحمد مختار عبد الحميد: ٢٤٦٢/٢.
(٣) ينظر: أزمة المواطنة في شعر الجواهري، فرحان اليحيى:٢١.
(٤) ينظر: قاموس محيط المحيط ، بطرس البستاني: ٨.
(٥) المعجم الادبي، جبور عبد النور: ١٥.

صعيد الواقع هي انقطاع وانفصال عن حال سويّة أو مألوفة أو مستمرة، ومن شأن هذا الانقطاع أن يسبب اضطراباً أو ألماً؛ لأن المألوف بطبيعته مريح؛ ولأن السوي في جوهره صحيّ[١].

وبتعبير آخر(هي عدم التكيُّف مع موضوع غير عادي يرتسم في مرايا النَّفس، فيحدث نوعاً من الاغتراب والإحساس بالضياع)[٢].

والذي ينظر إلى العصر العباسي يجده كأي عصر آخر، لا يخلو من هذه الإشكالية القائمة على (أزمة المواطنة)، التي هي مفهوماً شاملاً لكلِّ أبعاد الإنسانية التي يتصف بها أفراد المجتمع ، وأن الشاعر لم يكن بمعزل عن التحديات التي تواجهه ، فالتناقض الحاد الذي كان يعيشه المجتمع العباسي وتحديداً في القرن الرابع الهجري (عصر شاعرنا) إذ التأثير الواضح للسلطة، وما رافقها من مبادئ، وأخرى طارئة كانت تمثل هيمنة واضحة تناسلت عنها معارف وآداب واخلاق جديدة ، انقضت على التراث فنازعته الوجود ، فلم يجد الشاعر إزاءَ هذه المواقف أي حرج في التعامل مع الواقع وربَّما مناقضته؛ ولهذا كان (لمعظم شعراء هذه المرحلة مواقفهم الفكرية من الفن والحياة ، وكان لهم رؤيتهم الخاصة، ونقدهم للمجتمع، وتمردهم عليه، أو على الأقل اقتحام ظواهر هذا المجتمع وإعطاء تفسير لها، ومنذ ذلك الحين أصبح المجتمع موضوعاً للتأمل، فأصبح الشاعر يحلل التجارب الموجودة حوله ويسمو بها، أو بمعنى آخر إنَّه يعطينا تقريرا عن التجربة الى جانب التعبير عن التجربة ذاتها)[٣].

ويعدُّ (ابن لَنْكَك البصري)[٤]، أحد أولئك الشعراء الذين أحسوا بـ(أزمة المواطنة) في حياتهم، وانفصالهم عن الآخرين، وقد قادتنا أشعاره إلى هذه الإشكالية؛ والتي نضع بعضاً من أهم أسبابها:

---

(١) ينظر: أزمة المواطنة في شعر الجواهري: ٧.

(٢) الاغتراب ، ريتشارد شاخت، ترجمة: كامل محمد حسين: ٨٧.

(٣) موقف الشعر من الفن والحياة، د. محمود زكي العشماوي: ١٠١.

(٤) وهو محمد بن محمد بن جعفر، أبو الحسين ، ويلقب بابن لنكك بفتح اللام وسكون النون وكافين متوالين ، وهي كلمة فارسية معناها (الأعيرج) تصغير (أعرج)، ولا تعرف سنة ولادته، وهو من شعراء البصرة ، كان ذا قسط وافر من المعرفة والعلم، وكانت حرفة الأدب تمسه ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ونفسه ترفعه ودهره يضعه ، وكان مرهف الحس حاد المزاج

١- طبيعة العصر الذي عاش فيه الشاعر.

٢- الشعور بالظلم الاجتماعي وعدم المساواة .

٣- الشعور بالاغتراب والانفصال عن الآخرين.

٤- الحرمان والفشل في تحقيق المطامح .

٥- الشكوى من الزمن والناس .

لذا فموضوعة المواطنة توقفنا على مرجعية هائلة من التفسير لم نزعم أبداً استغراقها درساً ومتابعة، بيد أننا سنتعامل مع التجربة من محورين هما: موضوعية الأزمة، ولغة الأزمة، وهذا يعني (أنّ الأدب سيكون غير مثمر إذا واجهنا المألوف فقط)[١].

* * *

المحور الأول: موضوعية الأزمة

إنَّ المتتبع لسيرة (ابن لَنْكَك البصري) يجده شاعراً طموحاً، لكنَّه لم يكن موفقاً، علمًا أنَّه كان يحمل اسباب الوصول إلى غايته عدا الهدوء والتفكير المتأمل، ويبدو أنه لم يكن يحسن سلوك طرق الوصول والحصول على البغية ،إذ كان قلقاً سريع الغضب؛ لذا كان يثور لأدنى سبب ولأبسط الأشياء، ومثل هذا الخلق يترك صاحبه تعباً في صراع مستمر وفي ندم مستمر أيضاً، فهو ما إن عرف شيئاً إلَّا أذاعه، وما إن رضيَ عن شيء إلَّا اندفع له ، حتى إذا ما رأى ما لا يرضيه ثار ثورة مضادة، فيفسد ما كان قد عمل وبنى [٢].

سريع الغضب، توفي نحو ٣٦٠هـ ، ويقال إنَّه توفي في حدود الاربعمائة للهجرة ، تنظر اخباره في يتيمة الدهر: ٣٤٨/٢، معجم الادباء ٧٨/٧، الاعلام: ٢٠/٧.

(١) نظرية الاستقبال، روبرت سي هول، ترجمة رعد عبد الجليل: ١١٨.

(٢) ينظر: ديوان ابن لَنْكَك البصري ، حققه وقدم له ، د. زهير غازي زاهد: ١٨.

كان يتمتَّع بنفس قوية وأصيلة، وقد ذكر الثعالبي بأنَّ(محنة الفضل تدركه فتخدشه ونَفَسه ترفعه ودهره يَضَعه)[١]، ولا شكَّ أن شخصاً لديه مثل هذه الصفات، أن يكون حليفاً للحسرة والضجر، وفريسة لمشاعر الاغتراب المضنية، وهو يعيش في مجتمع اختلفت فيه الموازين، وكثرت فيه الالتواءات، فتبدلت الأعراف وانحرفت القيم الأخلاقية والاجتماعية ، فطغت عليها القيم الفاسدة والعادات الشاذة، وأصبح من لا ينجرف مع تيار العصر ينظر حوله فلا يرى إلا مظاهر التناقضات التي تدعو إلى العجب، حتى يحس أنَّ العقل عبء على صاحبه، وأن الصدق نزعة، وأن الجهر بالحقيقة اعتداء، من هنا تبدأ الأزمة بالظهور، ولاسيَّما حينما يشعر الشاعر بدونيته، وبأنَّه مهمش وغير ذي تأثير، فتراه يندب حظه قائلاً:

إنْ أصبحت هممي في الأفق عاليةً فإنَّ حظّـي ببطنِ الأرضِ ملتصقُ
كمْ يفعلُ الدهرُ بـي ما لا أُسرُّ به وكمْ يُسيءُ زمـانُ جـائرٌ حنِقُ
كمْ نفحةٍ لي على الأيّـامِ من ضجرٍ تكادُ من حرِّها الأيّام تحْتَرِقُ [٢]

هذه الرؤية التي يقدمها لنا ابن لَنْكَك البصري ، تنم عن أزمة نفسية خانقة ، مفادها هو الاحتجاج على العصر، وقد جاءت على شكل نزعة وجدانية استغرقت هموم الذات تحت وطأة الحرمان في حدود النفس المرتهنة في قبضة الدهر، وربَّما تكون هذه الفردية التي يعبِّر عنها الشاعر عبارة عن كتلة من التصورات المتلازمة التي تجعل من الشاعر يترقَّب الموقف ، ليعيش حالة انكسار ورفض للواقع ومقاييسه المنحطة ، وهنا يصوِّر لنا ابن لَنْكَك أزمته ونكبته في عصر تبدلت فيه الموازين، وذلك عائد إلى التفاوت الطبقي الحاد بين فئات المجتمع، وهذا التفاوت الطبقي هو الذي أثار اهتمام الشاعر، فعبَّر عنه أصدق تعبير، فلا عجب إذا ما عبَّر الشاعر ولو بنزعة شعبية عن أحوال المجتمع الذي يعيش فيه:

حِرمانُ ذي أدبٍ وحظـوةُ جاهلٍ أمرانِ بينهـما العقولُ تحيّرُ
كمْ ذا التفكّرُ في الزمـانِ وإنّما يزدادُ فيـه عمّى إذا يُتفكّرُ
الأرذلونَ بغبـطةٍ وسعـادةٍ والأفضـلونَ قلوبُهُمْ تتفطّرُ [٣]

---

(١) يتيمة الدهر: ٣٤٨/٢.
(٢) الديوان: ٥٧.
(٣) الديوان :٤٩.

فهذا التناقض الذي يعيشه الشاعر، دليل واضح على فقدان القيم وتبدل الموازين؛ لذا بدا على الشاعر أنه يعرف واقعه والآلام واقعه، فينفجر غضباً وسخطاً ، ويتحرق ألماً، لما هو عليه من إهمال وهوان، وفي ثنايا هذا التناقض، وهذه الازدواجية يتجلى فيها فكرتان، الأولى تشير إلى طبيعة العصر المتأزمة، والتي أجبرت الشاعر أن يخوض غمار هذا الموقف المتأزم هو الآخر، والأخرى تنبعث من حالات لا شعورية تؤدي بالشاعر أن يعمق الصراع بينه وبين ذاته، وهذا الذي يدعوه إلى أن يعيش تناقضات الداخل (الذات) والخارج (المجتمع).

فتقلبات الدهر وأبنائه من المجتمع الذين هم صنو الزمان ومادته ، كان لهما الأثر الكبير في بناء قوانين متأرجحة ومتبدلة، والشاعر غالبا ما يصطدم بأبناء هذا المجتمع ويتعامل معهم تعاملاً عميقاً وواعياً، (فالموضوع أي كان يظل مشروعاً ناقصاً لا يكتمل إلَّا بوصوله إلى الطرف الآخر : القارئ ، كما أن القصيدة تظل مفتوحة بانتظار القارئ الذي يملؤها بالدلالة والمغزى)[١]

وهذه المفارقة التي يحياها المجتمع العباسي بأكمله، وهي (ليست رؤية معنى حقيقي تحت آخر زائف ، بل هي مسألة رؤية صورة مزدوجة على صفحةٍ واحدة)[٢].

والغريب أن هذه المفارقة التي نتحدث عنها عالية التأثير في الواقع الاجتماعي ، ونظرة ثاقبة بعين باصرة ترى الاشياء بوضوح فتزيدها صفاء، وهذا ما دعا إليه الشاعر بهذه الرؤية المعتمة والمظلمة .

ولا شك أن التمايز الاجتماعي باستقطابه جميع الحالات السلبية ، والإرث الثقافي والتحليل الأخلاقي لا يمكن أن ندلي بثباته واستمراره، حين يتعرَّض المجتمع إلى مثل هذه الهزات، لكن هذا الموقف قد لا يلقى استجابة من المتحكمين بمصالح المجتمع، والتي ترى أن إبعاد الأدب عن التأثير في الحياة أمر مفروغ منه، وهو البديل المناقض للموقف الذي يتبناه الشاعر الذي راح يتحدث بحسرة على ما يجري في هذا المجتمع؛ ليوحي لنا بعدم الانتماء، فتراه يقول:

(١) مملكة الغجر، علي جعفر العلاق: ١٨.
(٢) المفارقة والادب، د. خالد سليمان: ١٨.

ذهبَ الذين يُعاشُ فـــي أكنـــافهم وبقيت في خلف بلا اكنـــــــــافِ
بطـــــاليسِ وقلانسٍ محـــــشوّةٍ يتعـــــــــاشرون بقلّةِ الانصـــافِ
ما شئتَ من حـــــــالٍ وفُرهِ مراكبٍ أبـــــــوابُ دورهم بلا أجوافِ (١)

إنَّ تشخيص الواقع وتصويره بهذه الحالة، يدفع بالنص أن يتشبث بالتباين والتقابل بين النقيض ونقيضه ، وهذه الفلسفة هي جزء من نزوع الشاعر ورؤيته الجدلية للأشياء ، التي تعني عدم التوافق مع النظام القائم في شكله الراهن الذي يتمثل بالعجز عن الاندماج في البيئة الاجتماعية، وتنشأ هذه الأزمة عندما يشعر الفرد بأن المجتمع والسلطة لا يحسَّان به، ولا قيمة له في ذلك المجتمع، ولا شكَّ أن هذه الظاهرة ترجع في نهاية الأمر إلى ملابسات المجتمع المتنوع الأقطاب والاتجاهات، من هنا اتسمت الأزمة بحركية الانفلات عن الواقع؛ لأنها مبنية على التقابل والتضاد بين الشاعر وواقعه، ولكن هذا الوعي وهذه المعرفة لن تتم إلَّا من خلال رؤية مستقبلية يظهر فيها الواقع الراهن مزيفاً.

من هنا جاءت أزمة الشاعر الحقيقية ، وهي أزمة من التوتر الشديد الناشئ عن الصراع الحاد بين العالم الخارجي وما يتطلبه من متطلبات حاجة المجتمع والناس ، وبين حاجة الشاعر وما يبتغيه ، وكأن الشاعر بات مفصولاً عن العالم الخارجي ، فتراه يقول في جماعة كان يتوسطهم :

وعصـــــــبة لمـــــا توسَّطتُهمْ ضـــــاقتْ عليَّ الأرضُ كالخـــاتمِ
كأنّـــــــهمْ من بعدِ أفهـــامهمْ لم يخـــــــــــرجوا بعدُ إلى العالمِ
يضـــــــحكُ إبليسُ ســـروراً بهم لأنّهم عـــــارٌ علـــــــــى آدمِ
كأنّنِـــــــــي بينَهُم جـــــالسٌ من سوءِ ما شاهدتُ في مآتمِ (٢)

وأزمة الشاعر هنا – كما نرى – مبنية على عدم الرضا بين العالم الخارجي وعالمه الذي يبحث عنه ويبتهج له ، لذا عندما يكون الاعتزال عن هذا العالم الخارجي في فكر الشاعر مطلباً ، عندها يمكن أن نشعر أن حالته مع أبناء عصره وصلت إلى أقصى حالاتها المتأزمة :

مضـــــــى الأحرار وانقرضوا وبادوا وخلَّفني الزمـــانُ علـــــــى عُلُوجِ

---

(١)الديوان : ٥٥.
(٢)الديوان :٦٦.

وقـــــالوا قد لَزِمتَ البـــيتَ جدّاً فَقلتُ لِفقْدِ فائِـــــــدةِ الخـــروجِ
فمنْ ألقَـــى إذا أبصرْتُ فيــــهم قروداً راكبينَ علـــــى الســـروجِ
زمـــــانٌ عزَّ فيه الجـــودُ حتَّى تَعَالى الجودُ في أعْلى البروجِ (١)

تشكل اجتماعية هذا النموذج الشعري عند ابن لَنْكَك البصري حاجزاً نفسياً يحول بينه وبين الآخرين، وهذا الموقف بقدر ما يفرض واقعاً متمرداً يعيشه الشاعر، إلَّا أنه يتضمن وعي الإنسان بالآخر، حيث تستلب منه هواجس النزوع إلى الجماعة ، في ايامه الحاضرة، فلا يرى شيئاً سوى الحسرة والآهة، فيميل للوحدة؛ لأنه لا يرى جدوى من الخروج عن الناس؛ لذا كان الاعتزال همّه الأول، وربَّما كانت الحاجة إلى الآخر من أولويات ابن لَنْكَك، وهذا الموقف الاجتماعي الذي انطلق منه الشاعر إنما يعبِّر عن روح العصر ومقتضيات المرحلة .

وهذه الابيات تدل دلالة واضحة على أزمة الشاعر في عدم الرضا والتلاؤم مع ابناء عصره مما أوقعه في أزمة التوافق، فالتوافق له جناحان هما الملاءمة والرضا، إذ إنّ التلاؤم يرتبط بالبيئة المادية ومطالب الواقع بجميع جوانبها، ولا يتحقق التوافق ولا يكون كاملاً إلَّا إذا صاحب هذا التلاؤم رضا الانسان واحساسه بالسعادة والتقبل النفسي لهذه البيئة المحيطة وفهمهم لمتطلباته (٢).

لذا فإنَّ تصور الواقع المعاش حيث القلق وعدم الاستقرار والشعور بالفشل في مخالطة الآخرين، كان من الطبيعي أن يدفعه إلى الشعور بأزمة التشاؤم والاحباط؛ لأنَّه(يؤدي إلى زيادة التوتر والاضطراب عند الافراد، ولعلَّ هذا التوتر والاضطراب أو شيء منه يظهر في كل المواقف الصراعية)(٣)، ولاسيما بعدما لم يبقَ حرّ من الأحرار في عصره يلتجأ إليه في أوقات المحن؛ ليكون النذل هو صاحب القرار:

لمْ يبـــــقَ حرٌّ إليه يُخْـــــــتَلفُ بلْ كلّ نذْلٍ علـــــــــيه مُختلفُ
يا فلكاً دارَ بالنــــــذالةِ والجهـــــلِ إلـــــــى كـــمْ تدورُ يا خَرِفُ

---

(١)الديوان: ٤٠.

(٢) ينظر: علم الصحة النفسية ، مصطفى خليل: ٢٩.

(٣) المدخل الى علم النفس، عبد الرحمن عدس : ٣٦٥.

فعـــــــاقلٌ ما يبُلُّ أنمـــــــــلهُ وجـــــاهلٌ باليدينِ يغْتَرِفُ (١)

فهذه الرؤية بجانبها المعتم والمظلم في أعماق الشاعر، تدلنا على صراع نفسي يتحكم في الذات ويملي عليها نوعاً من التناقض والخضوع بمسلمات الواقع الجديد، إذ يكون الكشف عن هذه التناقضات ما هو إلَّا محاكاة للواقع الاجتماعي المريض، وهذا الذي يثير علاقات جدلية يتمثَّلها ابن لَنْكَك البصري في مكونات نفسه؛ ليبثَّها على شكل صور يستنطق بها حالته النفسية بما فيها من الهموم الداخلية، وما يرافقها من جوع وفقر وكبت وحرمان، كلها مجتمعة تحاكي نتاجه الشعري وتدفعه إلى التعبير عنها بطريقة اليائس من الحياة فتراه يقول:

ومـا الفقرُ إلَّا للمذلّة صـــــــاحب وما النـــــــــاسُ إلَّا للغنيّ صديقُ
وأصغرُ عيبٍ في زمـــــــانِكَ أنّـــه به العِلمُ جَهلٌ والعفـــــــافُ فسوقُ
وكيـــــفَ يسرُّ الحُرّ فيـــه بمطلبٍ وما فيه شيءٌ بالسرورِ حقيقُ (٢)

هذا الفهم العميق للمجتمع والحياة تراه يؤثر في قصائده المتنوعة ، مما جعل الكثير منها تبدو وكأنها خيط ممتد بين البحث والخلاص(٣)، فهو إنما يعمد إلى تكثيف الدوال خدمة للمدلولات، لذا فكل شيء ينمو ويتكامل وجوداً في المجتمع ، ومع ذلك (يتجه الفنان بكل ما يملك من قوة إلى الاكتمال إلى المضمون الكلي للحياة إلى الوحدة المستلمة له إلى التأليف الكامل، فهو يحاول أن يوسع آفاق الانسانية جمعاء، ويؤلمه ما يحيط به من ذلك الاختلال الذي افلح روحه وميله الفني في تقليل نصيبه منه)(٤).

وهذا الاختلال الاجتماعي وما يحويه من تناقضات ليس ببعيد عن السلطة الحاكمة التي كانت بيدها مقاليد الأمور ، والتي أصبحت بشكل أو بآخر أحد اسباب الأزمة؛ لكون السلطة هي الراعية لهذا

(١) الديوان: ٥٦.
(٢) الديوان:٥٧.
(٣) ينظر: على سبيل المثال ،الديوان : ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤٠، ٤٣، ٤٥، ٤٩، ٥٢، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٦٧، ٦٨.
(٤) الادب والفن في ضوء الواقعية، جون افريفل، ترجمة محمد مفيد الشوباشي: ٥٠.

المكون (تمارس نفسها في خفاء ، ولكونها بالذات لا تتكلم ولا ترى نفسها، فإنها تسمح بالرؤية وتبعث على الكلام)[١]، هذه السلطة التي يراها الشاعر غير موفقة في إدارة الأمور:

وليتُم فمـــــا أوليتُم الناس طائلاً ولا حُزتُم شكـــــــــراً ولا صنتُم أجرا
فإن تُفقـــدوا لا يُؤلم الناسَ فقدكمْ وإن تُذكروا لا يحسنوا لكم الذكرى [٢]

إنَّ أزمة الشاعر على وفق هذا التصور السياسي المزري في زمنه لا تحتاج إلى تحوير الخطاب ايدلوجياً، فهو في أبسط معانيه خلاصة مريرة لواقع الشاعر السياسي المتبوع بالمعاناة المريرة، والقهر السلطوي السياسي المفتقد لخيوط الامل ، وما استهجان الشاعر بالقائمين على مقاليد الامور إلَّا دليل على إنَّ نسق الحياة التي يحياها الشاعر لم يكن كما يتمنى ، وهذا احتجاج سلبي يرفض كل ما من شأنه استعباد الانسان والتقليل من شأنه ، والنيل من كرامته وحقه الإنساني .

وربما تغدو مرافقه الشاعر في هذا الفضاء السياسي ضرباً من القلق ، فيما يريده من لفته لنفسه ولغيره ، فلا عجب إذا ما وجدناه محاطاً بمجموعة من الأصوات المشحونة بمظاهر الاضطهاد والاحتجاج والتمرد:

لُعِنتمْ جميعاً منْ وجـــــــوهٍ بليدةٍ تكنّفهم جهـــــــــــلٌ ولؤمٌ فأفـــرطا
وإنّ زمـــــــاناً أنتمُ رؤســـــاؤه لأهل لأنْ .....[٣]
أراكمْ تعينُونَ اللئـــــــــامَ وإنّني أراكم بطرق اللؤم أهدى مِنَ القِطا [٤]

هذا التجسيد الصريح غير المبالي بوضع الشاعر النفسي والاجتماعي، ليس فعلاً مجنوناً، بل توجهاً تشاؤمياً افترضته ظروفًا سياسية أثَّرت فيه، وأن تحولات جذرية وقضايا عامة اقتضته ممثلةً بالأقطاب والاتجاهات والرؤى التي كانت تسيِّر سياسة المجتمع ، كل ذلك كان مدعاة إلى خيبة الأمل التي تملّكت الشاعر ، وهنا يصبح المجتمع مرآةً ورمزاً للأوضاع السياسية ، التي تعم المجتمع وميزة هذه

(٢) المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، ترجمة: سالم اليفوت: ٧٣.
(٢) الديوان: ٤٩.
(4) قصداً أسقطنا تتمة العجز؛ لوجود كلمات بذيئة.
(٤) الديوان:٥٢-٥٣.

الاتكالية الحاملة للمفارقات ، إنها توفر مساحة أوسع لفهم التجربة السياسية التي يمر بها الشاعر ، واعطاها بعداً حضارياً وانسانياً اكثر شمولية .

ولا ريب أن هذا المناخ السياسي الذي ينضوي تحت وطأته ابن لَنْكَك كان قاسياً، فهؤلاء الخلفاء وحواشيهم في البيت العباسي من الوزراء والقوّاد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين، كأنما كُتب على عامة الناس أن يكدحوا ليملؤوا حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم، أما الانسان البسيط ـ وشاعرنا منهم ـ فعليه أن يتجرَّع غصص البؤس والشقاء، وأن يتحمَّل من أعباء الحياة ما لا يطيق(ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطانتهم يحتكرون لأنفسهم امواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقات قُتِّر عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حد، واضطراب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم)[(١)]، وفيما يظهر أنَّ الدكتور شوقي ضيف قد استعمل الفاظًا فيها قسوة ظاهرة، فلا نظن أنَّ دارسًا لتأريخ الادب العربي وعلوم اللغة العربية لا يقول بذهبية العصر العباسي، إذ لم يشهد التأريخ الاسلامي والعربي عصرًا ذهبيًّا مثله؛ لكن نجد الشاعر في نصوصه الشعرية يشير إلى الحيف الذي لحق بهم، وبهذا يحق لنا القول: إنَّ حال الشاعر المعاشة في مجابهته للسلطة السياسية لها ما يبررها، ولاسيَّما حينما يجدها غير منصفة؛ لذا فهو يهزأ منها وبقيمتها البالية التي كانت تقرب من هو يتغافل عنها ولا يمسها بنقد فتراه يقول:

أوَ ما رأيتَ مُلوكَ عصـــرِكَ أصبحوا يتجـــــــمَّلونَ بكلِّ قاضٍ أحمـــقِ
لا تلقَ أشبـــــــاهَ الحميرِ بحكمةٍ موِّهْ عليهم ما قدرتَ ومَخْرِقِ [(٢)]

إنَّ تذمر الشاعر وسخطه من ملوك عصره بدت ملامحها ، فهذه السلطة لم تعِ ما حولها من افراد الشعب والطبقات الاخرى والشاعر منهم، وإنما اقتصرت على فئة معينة، والشاعر كما هو واضح في هذا الخطاب السياسي غير راضٍ عن اداء السلطة الحاكمة؛ لهذا راح يعالج القضية بروح الناقم الساخر(لا تلق اشباه الحمير بحكمة ...)، والسخرية على هذا النحو تمثل جانباً مهماً لرفض الواقع الذي يأتي بصورة غير

(١) العصر العباسي الاول، د. شوقي ضيف: ٤٥.
(٢)الديوان: ٥٨.

مباشرة من خلال ابراز الحقائق المتناقضة والأفكار السلبية التي تمثل السلطة أو المجتمع في موقف تغري بمقاومتهـــا والرد عليها، وإيقاف مفعولها، أي أنه ينطوي على فلسفة خاصة ورؤى تنبع من روح الأديب ونظرته الخاصة للوجـود؛ لأنها (تمثل في ذاته دفاعاً عن المجتمع، عن الصورة المثالية التي يجب أن تتحقق له دائماً ، وأي مخالفة لها حتى لو كان الشخص نفسه هو المسؤول عنها بإرادته أو رغم تلك الإرادة، فإنها يجب أن تكون هدفاً للسخرية وموضوعاً لها، فحين يقارن الإنسان بين واقعه وبين هذه الصورة، ويرى في واقعه خروجاً عن النموذج السوي، فإنه لا يتردد في اعتباره تناقضاً ولا يحاول أن يخفي أو يكـابر أو يغالط ؛ لأنـــه حريص على الحياة)[١].

لهذا كان ابن لَنْكَك البصري يصب جام غضبه على كلِّ ما من شأنه أن يعكّر صفو هذه الحياة التي يحلم أن تكون على ما يتمناه، ولكنه لم ينجح في أمله هذا ، فكبرت نقمته وزادت أزمته ومحنته في عصره حتى راح لا يستطيع أن يتساوق معه، والشاعر ما هو إلاّ (كائن اجتماعي يحيا في منظومة انتاج معينة ويعكس وعيه بها صورة عن العالم)[٢]؛ ولذلك فإنَّ ابداعه يكون بالضرورة قائماً على ما هو كائن وموجود، وهذه الأزمة التي تكوَّنت في ذات الشاعر ابن لنكك، إنما هي رؤية وموقف من العالم المحيط به، جاءت غير متماسكة المعاني في محاولة التنقيب عن جوهر المشكلة والتأسيس لما يمكن أن نسميه(أزمة مواطنة)؛ وذلك لأن (الفن لا ينمو وفقاً لمنطق اجتماعي، وانما ينمو وفقاً لمنطق داخلي كامن فيه، متميز بطريقة ما، من المؤثرات الخارجية سواء في ذلك البيئة الاجتماعية والتكوين السيكولوجي للفنان)[٣]، فضلاً عن أن (العمل الأدبي ليس وثيقة اجتماعية أو تاريخية، وليس موعظة بلاغية، وليس كشفاً دينياً، وليس تأملاً فلسفياً، حتى ولو أمكن أن ينظر إليه على هذا النحو من أجل اغراض معينة ، أن الفن " وهم " و"خيال" والعالم فيه يتغير من خلال اللغة واللون والصوت)[٤] .

(١) السخرية في ادب المازني، د. حامد عبده النوال: ٣٢.
(٢) الجحيم الارضي، محمد بدوي: ٣١.
(٣) دراسة الادب العربي، مصطفى ناصف: ١٨٥.
(٤) مقالات في طبيعة الادب، د. مفيد أحمد السلامي: ٥١.

إنَّ أزمة الشاعر بهذا الشكل الذي نراه تغدو أن تكون شيئاً من الاشياء؛ وليس كل الاشياء ؛ لذا نراه يتطلع إلى الانعتاق عن عالمه إلى عالم آخر يلبي طموحه في الحياة ، وهذا الاحساس الفلسفي ، هو وليد الاحساس بالفشل من بلوغ القصد، فحين ينقطع ما بين الانسان والآخر، تكون الأزمة قد بلغت ذروتها، لتخلق الأزمة صراعاً جديداً يفرض(قوانينه على الواقع ليصبح لكل شيء معان جديدة)[١] .

وعلى هذه الشاكلة تقدِّم الأزمة نفسها على أنَّها اكتشاف النوازع الخفية في الإنسان وتحويلها إلى طاقات خلق فعّالة، في أعلى المستويات الإنسانية والأخلاقية، وعلى نحو معرفي مهم في تأجيج العواطف والانفعالات التي تنخرط فيها موهبة الفنان. وبهذا تكون الاستجابة الوجدانية لمثيرات الشاعر مرهونة بما اكتسبه من عوامل بيئية ، مستمدة من تجاربه الذاتية في الحياة، ويتم ذلك كله وفق تنظيم تجربة (الأنا) من أجل أن تقول شيئاً جديداً ؛ لأن الشاعر كما تقول خالدة سعيد: ذو هوية متحركة مسافرة ([٢])، كما أنَّه عملية متميزة بعض الشيء داخل عملية كبرى هي المجتمع ([٣])، لذا نرى ابن لَنْكَك يسعى أن يكون شيئاً له قيمة في الوسط الذي يعيش فيه،(فجنوح الفرد في كثير من حالاته تعبيراً عن نقمه، وعن مشاعره بالإحباط والظلم، وعدم المساواة، وعن أحاسيس بالمخاوف على المستقبل تنبع عن معاناة المجتمع لذلك الفرد الراغب في توفير فرص التكافؤ له كي يحقق ذاته؛ كي يكون ويعرف ويخلق)[٤]، فلا تصبح التجربة عندئذٍ تجربة ذاتية فحسب بل تأخذ امتداداً أوسع لرؤية مستقبلية لتكشف عن مجموعة من العلاقات الجوهرية المشاكلة للحياة ، بهذا المعنى (يمكن للمرء أن يتحدث عن حاجة الإنسان لفاعلية الآخر في الرؤية)[٥]، ويظهر هذا الإحساس بالتفرد عند شاعرنا، إذ يقول :

أيّـــــها الشيـــــــخُ الــــــــذي   برّزَ قدمـــــــــــاً في السيادةْ
والـــــذي أعطـــــــاهُ أهــــــــلُ   الأرض في السّبقِ المقـــــادةْ
وأقـــــــــرَّ الكـــــلُّ منـــــــهم   أنّــــــهُ عـــينُ القــــــــلادةْ

(١) التجربة الخلاقة، س. م بورا، ترجمة سلافة حجاوي: ١٧٣.

(٢) ينظر : حركية الابداع ، ١٢٢.

(٣) ينظر: الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، مصطفى سويف: ٣٤٠.

(٤) التحليل النفسي للذات العربية ، د. علي زيعور: ٢٢-٢٣.

(٥) المبدأ الحواري، تزفيتان تودوروف: ٨٥.

أنا يكفِـــــيني مِنَ المشـــــروبِ مـــــا يكفـــــيني جـــــرادةْ
وَحدِيثـــــي طـــــالِ فـــــيه مثل تفســـــــــير (قتادةْ)
وهـــــــو إبـــــرامٌ ونَقـــضٌ فاكفِنـــــي فيه الإعادةْ (١)

إنَّ هذا التكثيف الدلالي لـ(الأنا) عند ابن لَنْكَك البصري لا يحدث في ظننا ، إلَّا لشعور الشاعر بأزمة المواطنة وشعوره بالانفصال عن الواقع كان همه الأول، لتبديل الواقع (الآخر) الذي لا يحقق له وجوده في الحياة ، وبذلك تتجسد في الشاعر همومه وهموم عصره ، فهو يريد أن يصنع لنفسه مكانة بوصفه معادلاً موضوعياً للتعبير عن الحياة من خلال ذاته ، كونه يصطنع لنفسه قيمة في المجتمع والميل إلى هذا الاتجاه ينشأ دائماً فيما يجد الشاعر نفسه غير منسجم مع الآخرين .

وما نلمسه عند ابن لَنْكَك البصري ، أنه لا يحمل رسالة فحسب بل يملك الرغبة في التأثير في عواطفنا واستثارة مشاعرنا ، فإذا كان التعبير عن الانفصال شكلاً من اشكال التعبير عن الذات،(فإن استثارة الانفعال من الآخرين لا شك شكل آخر من أشكال التعبير عن الذات)(٢)، فتراه يقول:

يقولونَ لي: أصبحتَ في العلمِ واحداً وفي الشعرِ والآدابِ مـــــالكَ ثاني
فقلتُ : صدقتم أيُّها النـــــاسُ إنّني كذاك ولكن في حِرِ أمِّ زمانِي (٣)

لقد هيّأ شاعرنا لهذا النص كل شروط التقَّبل لدى المتلقي؛ لأن بوادر المعاناة والشعور بالغبن الاجتماعي كانت حاضرة فيه ، لذا لم يكن يهدف إلى إيصال هذه التجربة إلى المتلقي بقدر ما كانت هناك رغبة التأثير، وكأن الشاعر يريد من المتلقي أن يجمع بين متعة النص والانحياز له ، فالشعور لديه يكمن في معالجة هذه القضية؛ لأن (العمل الفني في جوهره قوة تعبيرية هائلة قادرة على تغيير الوجود، أو على الاقل تحويله إلى طاقة خيالية وإبداعية قادرة على انقاذ الفنان)(٤).

---

(١) الديوان: ٤٢. قتادة: هو أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري ، ولد سنة ٦١هـ كان ضريرًا حافظًا وفقيهاً ومفسراً وعالماً بالشعر، رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، توفي بواسط ١١٨هـ؛ ينظر: الأعلام، الزركلي:٥/١٨٩.

(٢) الذات والاخر، د. احمد محمد سلمان: ٧٨.

(٣) الديوان:٦٩.

(٤) النقد الجديد والايديولوجيا، د. محمد علي الكردي "بحث": ٩٦.

وفي بديل آخر جاء نتيجة شعور ابن لَنْكَك بأزمة المواطنة، وما يشعر به من القلق والتوتر وضعه إلى ممارسة اردأ الاختيارات المطروحة أو البحث عما هو سلبي بوعي جديد؛ لأن الوعي الفني ينبعث تحديداً على اساس علاقات جديدة بين الفرد والمجتمع ، والعمل على إيجاد سبل أخرى يشعر بها الشاعر أنَّه يحقق ذاته أو على الأقل يشعر أنه يعيش الحياة من غير نكد أو ضجر؛ لذا فهو يعمد إلى تجاوز أزمة المحيط والاندماج أكثر في الحياة العبثية ، والشاعر هو وحده المؤهل لهذه المهمة ؛ لكونه ناظم كلمات، ولأنَّه (انسان شارد يتوصل إلى رؤية الحقيقة المحجوبة عن عيوننا؛ لأنَّه أكثر تجرداً منا، وأقل انشغالاً بالأمور العلمية)[١]، وفي هذا السياق يعطينا ابن لَنْكَك البصري تصوراً أو تفاصيل لرؤية متجانسة لتفاصيل الأمور وخصائصها المتخفية ، التي لا يمكن لظاهر المتلقي التقاطها أو فهمها بيسر، فهو حينما يلتجأ إلى النزعة العبثية كأنَّما يريد أن يحرر نفسه من سجن الواقع، فانعكاس الخمرة على الحياة له ما يبرره:

خليليَّ اسقيـــــــــاني الراحَ صرفاً أداوِ حريقَ قلبـــي بالرحيقِ [٢]

فالشاعر هنا ، كأنما جعل من الخمرة معادلاً روحياً لانكساره ولأزمته، فهي القادرة على التخفيف من حدة احساسه بالفشل وخيبة الأمل، ولم يقتصر الأمر عليها وإنما جنح الشاعر أيضاً إلى الطبيعة ؛ لتكون كذلك عالمه الآخر، فتراه يقول:

وروضٍ عبقريِّ الوشْي غضٍّ يُشاكِل حينَ زُخرِفَ بالشقيقِ
سماءُ زبرجدٍ خضــراءُ فيها نجومٌ طالعاتٌ من عقيقِ [٣]

إنَّ موقف الشاعر – هنا – من الطبيعة له ما يبرره، كونها تمثل الآخر في حياته، حينما تصل الأمور إلى أشدِّها بينه وبين الآخر العصر والناس، فهو يتمتع بها ويحنُّ إليها ويجعلها الملاذ الآمن، في عصر ساد فيه الخلل والقيم البالية ، فهو قد ذكر (روض) بعد (الواو) ليدلل على الشيوع والكثرة، وهذا

(١) لحظة الابدية، سمير الحاج شاهين: ٨٤.
(٢) الديوان: ٥٩.
(٣) الديوان : ٥٨.

يظهر أن ذلك الروض ، قد ازاح هموم الشاعر واستولى على بصره ، فالأرض كلها لوحة بساط من الديباج عبقري الوشي مزخرف لونه يسر الناظر يشاكل الزهر الأحمر.

هذه الرؤية التي لجأ إليها الشاعر في ظننا مقدمة لأزمة الانتقال من الرغبة إلى أخرى يكون الشاعر اكثر التصاقاً بها؛ لأنها من وحي ظروفه النفسية، ولأن الشاعر لم يرَ صورة الحقيقة إلاّ في الحياة التي يتمناها، والتي تستغرق احتمالات تأويلية متعددة، فعلاقته بالحياة علاقة اندماجية، ولعها ايضاً استبطان لنزعة فكرية منحازة إلى ثقافة ما في خصوصيتها وهويتها المستقلة .

فلا سبيل – إذن – لهذا الطامع لحياة اكثر امتلاء إلَّا الهروب من هذا الواقع العقيم، وابتكار واقع جديد قائم على نسيان كل ما شأنه أن يعكر صفو الحياة .

وتأسيساً على ما تقدم من نصوص شعرية تنكشف لنا تجليات الموقف وأزمة الشاعر، وهو ينتقل من حالة إلى أخرى، وهنا تغيب علامات الذات وتعيش صراع الغربة والوحدة وتشعر بالعزلة بعد انزوائها عن الآخرين ، وشاعرنا هنا مع أنه يرفض ويتمرد على هذا الواقع إلَّا إنه غير قادر على تبديله أو تحريفه؛ لأنه نظر إليه بعين واحدة ملؤها التشاؤم ، فهو في الوقت ذاته لا يمتلك واقعاً مألوفاً يصطنعه لنفسه، وبهذا يتداخل معه الشعور باللاشعور ولاسيما إذا ما قلنا (إنَّ النفس البشرية تخضع لنفس المشاكل والتناقضات في كل الأزمنة)([1]) .

والشاعر يبحث عن ذاته، والتماس محور ارتكازي له، في مجتمع لم يعِ متطلبات ما يتمناه، وهذا كله دفعه إلى إدانة الواقع الذي كان مبنياً على صراع المعالم والتدني الانساني، ورؤية هذا النوع تحيل على قراءات متعددة للذات خاصة عندما ينطلق الآخر بأزمة المواطنة، وهذا يفترض تغيراً جذرياً في موقع الذات بمعنى آخر، أن الأمر يتعلق بالروابط القائمة بين الشاعر والمجتمع، وبين الشاعر وذاته، وهذا الموقف يثير قناعات الشاعر على ما فيها من استسلام ظاهر إلى حدِّ الخوف من الآخر.

***

(١) التجربة الخلاقة: ٦٥.

المحور الثاني: لغة الأزمة

في خضمِّ التناقض بين الواقع والطموح يتشكل وعي ابن لَنْكَك البصري، حتى أصبح التغيير هاجسه ومصدر قلقة الدائم ، ومصدر رفضه وسخطه ، وهذا الأمر كان يمثل محركاً أساساً في تجربته الشعرية.

إنَّ هذه الفرضية تمثل محور البحث ومداره؛ ولذلك كان لابُدَّ من التنبه إلى الآثار المترتبة على لغة الشاعر المؤثرة في اسلوبه، مما يستدعي الباحث عن هذه الأزمة في شعره، للسؤال هل إنَّ هذه الأزمة النفسية إيجابية تدعو للتجاوز أم مجرد تعويض عن الإحباط والانكسار على المستوى المكشوف ؟

إنَّ الواضح من القراءة الأولية، وعلى المستوى المخفي الذي لا يتأتى الكشف عنه إلاَّ من خلال قراءة متأنية للنص تكشف عن حقوله الدلالية وتشكيلاته الإبداعية بلاغية كانت أو ايقاعية، وهذا الكشف يتأتى من دراسة اللغة، فالشاعر عبَّر عن أزمة المواطنة بلغة تختلف عن لغة الواقع، فهو استطاع أن يتعامل معها بمرونة وتحكم مذهل ، وفي هذا الصدد يقرر بعضهم أن (الشاعر الذي يمتلك اللغة ويفجر طاقاتها هو الذي يتفرد بمقدرة فائقة في تشكيل النص)[١].

وقد وظَّف ابن لَنْكَك البصري أدوات تعبيرية مختلفة ، واستعمل اساليب متعددة شكَّلت بمجملها البنية الفنية والجمالية التي جسدت عناصر الأزمة وأبعادها الخفية.

فمن تلك الأساليب التي لها دلالات معنوية أسلوب النفي ولاسيما بـ(ليس) و(لا) التي تعبّر عن معاني الرفض والتحدي للسلطة وسلبيات المجتمع كقوله :

---

(١) الشعر العربي المعاصر: ٥٢.

لا تخْـــدَعَنْك اللَّحى ولا الصورُ تسعة أعشارِ مَنْ ترَى البـــقرُ
تراهُمُ كالســــــــحابِ مُنْتشِراً وليسَ فيهِ لِطـــالبٍ مطرُ (١)

وقوله ساخطاً:

ليس في البصـــــــــرة حرٌّ لا ولا فيـــــــها جـــوادْ (٢)

هذه الدلالات الجزئية في وحدات الرفض والاستنكار يمكن ارجاعها إلى الدال المعنوي العام الذي يتمثل في الموقف الشامل (أزمة المواطنة)، كما أن الدال والمدلول معاً في سياق واحد، يكاد يكون أوقع في تكثيف الدلالة من حيث كون استخدامه ايحائياً وثيق الصلة بشعرية الأداء، وهنا يكسبها سعة وامتداداً أكثر من حدودها الدلالية الضيقة ، فسياق الحال في الموقف الانساني– كما يبدو –يساعد الشاعر على مراوغة اللغة والابداع لنصوص أدبية تثير الأطر وتحفزه على الاستجابة لمتطلبات الذات، كتفريغ لغوي صادق لمعاناة نفسية واقعية.

ولا يخفى هنا، التكرار الذي جاء في (لا) الذي يؤذن بتأكيد معنى الرفض لما هو سائد في ذلك العصر، عندما يكون أصحاب اللحى ويراد بهم القضاة والفقهاء والمعروف عنهم أهل علم ودين، لا يقدمون النصح والإرشاد والمعرفة للناس ولا يجعلون الأمور في نصابها، يخادعون الناس بلحاهم فقط، مما جعل الشاعر يراهم كالسحاب المنتشر، وليس بذي فائدة ترتجى لهطول المطر ، وهنا مجاز عقلي علاقته جزئية، إذ عبَّر عن العلماء والقضاة بجزء وهو اللحى تعبيراً عنهم، وهذا لا شك مجاز مبدع.

وكذلك يكون التأكيد بالرفض للواقع المعاش عندما تتصادر الحريات، ويعمُّ جور السلطة حتى ينعدم في ذلك الواقع الكرماء وأهل الجود مما يدل على أزمة مواطنة حقيقية تفرض نفسها على الشاعر.

ومن الأساليب الأخرى في لغة الأزمة أسلوب الاستفهام، ولاسيما الاستفهام التعجبي الإنكاري بـ(كيف) وأسلوب النفي التعجبي بـ(ما)، ففي كلٍّ منهما ايحاء ودلالة على نفسية الشاعر المضطربة حينما تتنازع فيها التناقضات، فتجده مستغرباً من عصره وحكامه فتراه يقول:

(١) الديوان : ٤٥.
(٢) الديوان : ٤٣.

وكيف يسرُّ الحُرَّ فيـــــه بمطلبٍ وما فيه شيءٌ بالسرورِ حقيقُ (١)

وقوله:

أو ما رأيتَ ملوكَ عصرِكَ أصبحوا يتجمَّلونَ بكلِّ قاضٍ أحمقِ (٢)

وبذلك يكون استعمال الشاعر لأساليب النفي والاستفهام معادلاً نفسياً للواقع السياسي والاخلاقي لمجتمعه، فالرفض لبعض الاوضاع الاجتماعية له علاقة وثيقة برؤية ابن لنكك البصري، التي تبدو الخلفية الممهدة لأزمة الشاعر وتشاؤمه من الواقع، والتي تحيل على المعاني المجابهة والتحدي وهي تجسد حالات العنف والغضب عند الشاعر كما في موقفه من الزمن، فتراه يقول :

يا زمـــــــــاناً ألبـسَ الأحرار ذلاً ومهـــــانهْ
لست عندي بزمـــــانٍ إنّما أنت زمـــــــانهْ
كيف نرجو منـــــك خيراً والعلى فيـك مُهـــــانهْ
أجنـــــونٌ ما نـــــراه منك يبدو أمْ مَجَانهْ (٣)

وتتجلى في لغة الأزمة في حقولها الدلالية عند ابن لَنْكَك البصري، تأكيدات الجملة الأسمية لتحمل دلالة معنوية تفيد الثبات والحسم، وتثبت الحكم في النفس وتقويته وتزيل الشكوك، وهذا يتلاءَم مع مواقف ابن لَنْكَك الثائرة التي لا تعرف المهادنة ولا أنصاف الحلول، فأحكامه قطعية وخاصة في معالجة أسباب أزمة المواطنة، سواء أكانت على الصعيد النفسي أم الاجتماعي أم السياسي، فهو مثلاً يؤكد على فشل الحكام في إدارة الأمور ، كما في قوله :

فإن تفقدوا لا يُؤلم الناسَ فقدُكمْ وإن تُذكروا لا يحسنوا لكم ذكرى (٤)

وقوله:

وإنّ زماناً أنتمُ رؤســـــــــاءه لأهل لأن ... . (١)

(١) الديوان : ٥٧.
(٢) الديوان : ٥٨.
(٣) الديوان : ٦٨.
(٤) الديوان : ٤٩.

وقوله في رفض الواقع :

إن أصبحت هممي في الأفق عاليةً فإنّ حظّي ببطنِ الأرضِ ملتصقُ (٢)

إنَّ هذه النماذج من وحدات الرفض تتكامل مع مستويات المواجهة والتحدي، سواء اكانت نفياً أم استفهاماً انكاريا أو تقريراً، ومن خلال تحليل هذه النماذج عبر الحقول الدلالية للأزمة، يتضح أنَّ بناء الجملة عند ابن لَنْكَك يرتبط بالمناخ النفسي أو السياسي، فهي تعبِّر عن مواقف سياسية أو اجتماعية ونفسية، فالشاعر يؤمن بالتغيير، فلا بد أن يبني تصوره على الرفض لكلِّ ما هو قامع ومهيمن وسائد؛ لذا يفترض أن تكون العلاقة متوترة بين لغته الخاصة ولغة الواقع.

ومما تجدر الاشارة إليه في لغة الأزمة عند شاعرنا هي النزعة الدرامية ، التي من خلالها يمكن أن نشعر بمعاناة الشاعر، ولا يمكن أن نفهم هذه الأزمة إلاّ عندما يكون هناك تناقض أو تضاد، الذي يمكن من خلاله أن نتحسس الواقع ؛ فالتقابل أو التباين على مستوى الصورة أم على مستوى المشهد يزيدان في تعميق الانتظار الذي يعاني منه الشاعر ، ويمكن اعتبار درجتها اقصى حالات التمزق والمعاناة في مواجهة ضروب تناقضات الواقع (٣) إذن فـ(ليس من السهل أن يتحقق الطابع الدرامي في عمل شعري مالم تتمثل وراءه أو فيه العناصر الاساسية التي لا تتحقق الدراما بدونها، واعني بذلك الانسان والصراع وتناقضات الحياة ... ، فالإنسان في كل تجربة من تجاربه يخوض معركة مع نفسه احياناً ...، واحياناً مع الآخر)(٤) يقول الشاعر:

حِرمانُ ذي أدبٍ وحظـــــوةُ جاهلٍ أمرانِ بينهـــــــــما العقولُ تحيّرُ
كمْ ذا التفكرُ في الزمـــــــانِ وإنما يُزدادُ فيـــــــــه عمّى إذا يُتفكّرُ
الأرذلونَ بغبـــــطةٍ وسعـــــادةٍ والأفضـــلونَ قلوبُهُمْ تتفطرُ (٥)

(١) الديوان: ٥٣. قصداً أسقطنا تتمة العجز؛ لوجود كلمات بذيئة.
(٢) الديوان: ٥٧.
(٣) ينظر: أزمة المواطنة عند الجواهري: ٣١١
(٢) الشعر العربي المعاصر ، د. عز الدين اسماعيل: ٢٨٤.
(٥) الديوان :٤٩.

فالملاحظ هو ذلك التناقض العجيب لذلك العصر الذي يوحي بمدى التفاوت ، ويظهر ذلك واضحاً بألفاظ (حرمان ، حظوة) (ذي أدب ، جاهل) (الارذلون، الأفضلون) (غبطة وسعادة ، قلوبهم تتفطر)، وما التضاد في لغة الشاعر هنا إلَّا معادلاً لما يدور في نفسه، فهو يعبر عن ازمته تعبيراً صادقاً عفوياً يظهره بملء ارادته ولا خفاء فيه ولا استحياء، ولا يخفى أن ذلك ينسحب – في تقديرنا – على مرَّ الازمان والعصور، ففي زمننا الحاضر نجد الأمر يتكرر فلسان الحال يغني عن المقال، وكأن نص الشاعر متجدد، ويصلح أن يقاس عليه تشابه أزمات غربة الذات في فضاء الانتماء.

ويكشف لنا التضاد في موضع آخر عن حالته النفسية، عندما راح يصور الايام تصويراً نفسياً ليظهر في النهاية ازمته في عصره عندما يكون الزمن طويلاً عليه:

فقصارُهنَّ مع الهمومِ طويلةٌ وطوالهنَّ مع السرورِ قصارُ (١)

فالتضاد يظهر في قوله (طوالهنَّ ، قصار) ،(الهموم ، السرور)؛ ليوحي لنا بأزمته النفسية عندما تضيق عليه حياته حتى يكون الزمن عليه كأنه سرمد لا ينتهي.

والتكرار أيضاً يرتبط ارتباطاً مباشرا بأزمة الشاعر، فهو يتخذ كطاقة نفسية مشحونة، تفيد الباحث في تحليل لغة الأزمة، من خلال إيصال الفكرة إلى المتلقي، ومن ذلك قول الشاعر:

يَعيبُ الناسُ كلُّـــهم الزمانا وما لزمـــــــاننا عيبٌ سوانا
نعيبُ زَمَـــانَنا والعيبُ فِينا ولو نَطَقَ الزمانُ إذنْ هجانا
ذئابٌ كلُّـــــنا في زيِّ ناسٍ فسبحانَ الذي فيه برانـــــا
يَعَافُ الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ ويؤكلُ بعضُنا عيــانا (٢)

فتكرار الألفاظ (نعيب، العيب، زماننا، الزمان، ذئاب، ذئب) أحدث وقعًا موسيقيًّا جميلًا، فقد أكد المعاني المتوخاة منه، وغدا انعكاساً لدرجة احساس الشاعر بالأزمة، في مجتمع تسوده الانانية وتبدَّلت به القيم وانتزعت منه الانسانية التي تجردت من ثوبها، لتمارس افعالاً تنأى عن فعلها ذئاب الحيوانات، ولتكون

(١) الديوان: ٤٧.
(٢)الديوان: ٦٨.

صفات الجشع والغيبة والنفاق وما شاكلها من الامراض القلبية، هي التي وسمت زمن الشاعر ودلَّت عليه، ولا يخفى كذلك أن النص كشف عن هيمنة واضحة لصوت(النون) الذي تكرر سبع عشرة مرة ، فشكَّل بذلك بروزاً واضحاً في أثر الأزمة وما تحويه من ضيق حانق لدى الشاعر على المجتمع، فخلق ايقاعاً داخلياً ارتبط بحالته وانفعالاته، لذا نعتقد أن الشاعر(لا يلجأ إلى مثل هذا الابداع الموسيقي بتعمد وتصميم مسبق، وإنما هو ينبثق من الفعل الشعري ذاته) [١] الذي شدّ أزره بالتصريع كما في البيت الأول، إذ إحدث صدىً موسيقياً مع حسن اختيار القافية المطلقة المحمَّلة بدلالة الافق الطويل، الذي لاحدَّ له؛ ليعزز ذلك التأزم الذي اشرنا إليه، فهذه القافية المطلقة وحرف الروي(النون) أخذا ينسجمان مع نفسية الشاعر المتوترة، فالوزن كما نرى في القصيدة يكون منسجماً مع الألفاظ التي لابد أن يكون لها علاقة قوية بالعاطفة.

لا يخفى أن لغة النص، استطاعت أن ترسم مشهداً لأحوال الناس من خلال العناصر الفنية المتمثلة بالتشبيه والكناية، فبعد أن شبه نفسه ، ومن حوله من البشر، بالذئاب استدرك ليحط من قيمة الإنسان المتنصل عن القيم والمبادئ الإنسانية السامية ، فالذئب لا يأكل لحم أخيه كما عند البشر.

لقد استطاع أن يفاجئ المتلقي بهذا التحول؛ ليدلل على أنه شاعر مدرك لسلوك عصره مع بقاء صورة التأزم النفسي من ذلك الواقع الذي ولد فيه ، وانصاف يكاد يفتقر إليه آخرون، فهو لم يستثنِ نفسه عن تلك المساوئ.

وفي لغة الأزمة، نلحظ كذلك استحضار الرموز التراثية المتمثلة بالأسماء والكنى، إذ استخدمها الشاعر رموزاً تمارس نشاطها في إطار حضاري عام ، ولاشك أن مجرد استحضارها، إنما يثير بعض الطاقات الإيحائية الوجدانية لدى المتلقين، وفي اغلب الحالات ، وظَّفها في مواقف إثبات الذات لمواجهة أزمة المواطنة الحادة التي عاناها، كما في قوله:

إذا خفقَ اللواءُ عليَّ يوماً وقد حَمَل أمروُ القيس اللواءا

(١) دير الملاك، د. محسن اطيمش:٣٤٥

رجوتُ اللهَ لا أرجو سواه لعلّ اللهَ يرحمُ مَنْ أساءا[١]

إنَّ المتمعن في البيتين ، يلحظ الشاعر يحاول أن يردف نفسه مع امرئ القيس ، عندما قام باستحضار هذه الشخصية الشعرية المعروفة ، والتي حملت لواء الشعر إشارة إلى ريادته وشاعريته، بتناص جميل مع حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) المشهور عن امرئ القيس حامل لواء الشعر إلى النار، لكن المفارقة هنا، أن الشاعر يرجو إذا ما وقعت عليه هذه المسؤولية في القيادة، أن يرحم الله به مَن قد أساءَ.

ومثل هذا قوله:

وحديثـــــــي طالَ فيه مثل تفســـــير قتادةْ [٢]

فالشاعر هنا يعطي إشارة إلى تمكنه في الحديث واجادته فيه، مثل قتادة؛ ليوحي لنا بثقافته وعلمه وخبرته في الشعر وقدرته على التفسير .

ومن الملاحظ في لغة الأزمة عند الشاعر ظاهرة نراها بارزة في ديوانه، ونرجح سببها يرجع إلى ازمة المواطنة النفسية، وهي ظاهرة المقطعات الشعرية ، فديوانه يكاد يخلو من القصائد إلَّا من قصيدة واحدة لا تتجاوز تسعة أبيات ، وكانت على البحر البسيط الذي نال المرتبة الثالثة في النظم، وهذه الظاهرة يعللها صاحب الديوان، إلى(إنَّه كان قلقاً عظيم الاضطراب ، حادًّا في تعامله مع الاشياء، مما انعكس هذا القلق على شعره ، فأحاله مقطعات قصيرة، لم يكن يصبر فيه على القصائد الطوال؛ لأنه لم يستخدمه للمدح ولا للاتصال بالأمراء ، وإنما كان الشعر عنده تعبيراً عن أحاسيسه الذاتية، وحالاته الفرحة أو الحزينة الناقمة ...، وشاعر هذا نموذجه يشيع في شعره هذا التوهج المستمر، يشيع في شعره هذا الهجاء الغاضب، هجاء للحياة ، هجاء للأدباء للشعراء للقضاة للملوك ...، حتى استحال الهجاء لديه هراوة حيناً ووسيلة يحاول أن يفيد منها حيناً آخر)[٣] ، فشاعرٌ هذا واقعه المتأزم، تسيطر عليه هذه الأفكار لابُدَّ أن يؤثر ذلك على لغته الشعرية وصوره، وهذا يدُّل على أن من الصعوبة فصل الفكرة عن الإيقاع والصورة،

(١) الديوان: ٣٣.
(٢) الديوان: ٤٢.
(٣) ينظر الديوان : ٢٣.

إنها غالباً فكرة روجت للصورة والايقاع (وهو يبدأ في اللغة حين يساند الدلالة العقلية ويعاونها ويثيرها، يصبح هو نفسه ذا دلالة عندئذٍ)[١].

ولا بُدَّ من الإشارة، أن شعر ابن لَنْكَك يتسم بالإيقاع الصوتي العالي والقرع الحاد، ولعل تفسير هذه الظاهرة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة الشاعر المتمردة وواقعه المتأزم، فهو يختار بحوراً معينة من الشعر العربي ويحسن الاختيار، كالبسيط الذي يمتاز بالإيقاع المتناوب في وحدات صوتية (مستفعلن فاعلن) والنغم الهادر الذي يثير الحماس في ذهن المتلقي، كما في قوله:

إنَّ أصبحت هممي في الافق عاليةً فإنَّ حظّــي ببطنِ الأرضِ ملتصقُ
كمْ يفعلُ الدهر بـــي ما لا أسرُّ به وكم يُسيءُ زمــانُ جـــــائر حنقُ
كمْ نفحةٍ لي على الايّــام من ضجرٍ تكادُ من حرَّها الأيام تحْتَرِقُ [٢]

هذا القرع الحاد ، والنغم العالي يتناغمان مع الصور والكلمات المشحونة بالغضب والتوتر والحسرة (هممي، ببطن، يفعل الدهر، ما لا أسرُّ، كم يسيء، جائر، حنق، نفحة، ضجر، حرها، تحترق)، ويجيئ التوزيع الداخلي متناسقاً مع الاطار الموسيقي العام، وبذلك يحقق التجانس بين العناصر الصوتية والتصويرية، وبين الموقف النفسي والفكري؛ لأن الشاعر يقف موقفاً عنيفاً من الدهر، ومثل هذا الوضع يتطلب إيقاعاً قوياً.

وإذا ما حصرنا المقطوعات التي تدل على أزمة المواطنة في شعر ابن لَنْكَك نجدها في الغالب على الاوزان التي تحمل دلالات الشدة والتوتر والتحريض والضيق، كالبحر الطويل والوافر والبسيط والكامل ، وهذا يعلل ما يتناسب مع ما يبتغيه الشاعر، وكأنه يتناسق مع انفعالاته وشعوره الباطني بالأزمة [٣].

---

(١)المختصر الشافي على متن القوافي، محمد الدمنهوري: ٤٢.
(٢) الديوان : ٥٧.
(٣) ينظر في الديوان : ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩.

وهكذا استطاع ابن لَنْكَك، أن يحقق باللغة الشعرية التوازن بين الصوت والصورة والفكرة في نسيج محكم، لتجسيد أزمة المواطنة التي شعر بها في مجتمعه ، وأن يحقق قدراً من الفاعلية والتأثير على المتلقي الذي شعر بمعاناته ، وما تجيش به نفسه .

الخاتمة

يتخذ البحث عتبة نهائية يختم بها ما تم التوصل إليه من نتائج إلى تحقيقها، ويمكن إجمال ذلك في أمور عدَّة تتمثَّل بالآتي:

- يعتصر الشاعر الحنين الذي أصبح سيمياء ظاهرة في شعره، إذ عاش حياته بين الألم والأمل باحثاً عن فسحة الأمل في فضاءات نفسه المنكسرة .
- لم يكن الشاعر ابن لنْكك البصري من الشعراء الغفل، إذ إنَّه يمثل فئة تعاني الفقر والاستبداد، فهو لسان حال المظلوم، فيحاول بصوته أن ينتصر لذاته ، وأن يكون ملاذاً آمناً للآخرين في عالمه الافتراضي.
- يتسم شعره بالنظرة التجزيئية التي تبعث في النفس متعة التعبير الصادق عن الشعور الداخلي لصراعاته المستمرة، وأقرب ما يكون الى من يضرب السهم، أو يضرب بسيف ضربة واحدة خاطفة يصل فيها الى مبتغاه.

- تنوَّع شعر الشاعر في التعبير عن قضيته الكبرى، إذ تعد من أهم الصراعات المصيرية التي تواجه الانسان، ومن أصعبها، فهو يحاكي أزمة المواطنة التي تشعره على الدوام أنه في وطن مسلوب الإرادة.
- يظهر للمتلقي أنه في حالة اندماج حقيقي في كل تفاصيل حياة الشاعر؛ لأنه يعبِّر عن أسلوبية فترة قد نحس بأننا ننتمي إليها.
- أزمة المواطنة دفعت بالشاعر إلى التمرد والرَّفض لكثير من سلبيات المجتمع.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الرسول الأمين وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين...

المصادر والمراجع

- أبو منصور، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي(٣٧٠هـ)،(٢٠٠١)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- إسماعيل: د. عز الدين، (١٩٨١) : الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط٣، دار العودة ، بيروت .
- اطيمش: د. محسن(١٩٨٢) : دير الملاك ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، دار الرشيد للنشر، بغداد.
- افريفل: جون، (د.ت): الأدب والفن في ضوء الواقعية، ترجمة: محمد مفيد الشوباشي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- بدوي: محمد (١٩٨٦): الجحيم الارضي، قراءة في شعر صلاح عبد الصبور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .
- البستاني: بطرس (١٩٨٣) : قاموس محيط المحيط ، مكتبة لبنان ، بيروت .
- البصري: ابن لنكك،(٢٠٠٥): الديوان، حققه وقدم له د. زهير غازي زاهد، منشورات دار الجمل، المانيا.
- بورا : س. م (١٩٧٠)التجربة الخلاقة، ت سلافة الحجاوي ، ط١، دار الحرية، بغداد .
- تودوروف: تزفيتان،(١٩٩٢): المبدأ الحواري ، دراسة في فكر باختين، ترجمة: فخري صالح، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد .
- الثعالبي، (د.ت): يتيمة الدهر، تحقيق: محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة .
- الجندي : انعام ،(١٩٦٧): دراسة الأدب العربي ، ط٢، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت .
- الحموي: ياقوت ،(د.ت): معجم الأدباء، طبعة مارجوليوث .
- خليل: مصطفى، (د.ت): علم الصحة النفسية ، دار النهضة العربية ، بيروت .

- الدمنهوري : محمد، (١٩٥٤): المختصر الشافي على متن القوافي ، ط٣، مطبعة الازهرية، القاهرة .
- دولوز: جيل (١٩٨٧) : المعرفة والسلطة ، مدخل لقراءة فوكو ، ترجمة: سالم اليفوت ط١، لبنان .
- الزركلي الدمشقي، خير الدين، (ت: ١٣٩٦هـ)،(٢٠٠٢م): الأعلام، ط١٥، دار العلم للملايين.
- زيعور: د. علي، (١٩٧٨): التحليل النفسي للذات العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
- سعيد : خالدة (١٩٧٩) : حركية الابداع ، دار العودة ، بيروت .
- السلامي، د. مفيد أحمد ،(١٩٧٥) : مقالات في طبيعة الأدب، ط٢، دار المعارف، القاهرة.
- سلمان: د. أحمد محمد،(د.ت): الذات والأخر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت .
- سليمان: د. خالد ،(١٩٩٩): المفارقة والأدب ، دراسات في النظرية والتطبيق ، ط١، دار الشروق، عمان
- سويف: مصطفى،(١٩٥١): الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة، دار الفكر المعارف، مصر.
- سي هول: روبرت ، (١٩٩٢) : نظرية الاستقبال ، ترجمة: رعد عبد الجليل ، دار الحوار .
- شاخت: ريتشارد ، (١٩٨٠) : الاغتراب ، ترجمة: كامل يوسف حسين ، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت .
- شاهين: سمير الحاج ،(١٩٨٠): لحظة الابدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، ط١، المؤسسة العربية والدراسات، بيروت.
- ضيف: د. شوقي ،(د.ت): العصر العباسي الاول ، ط٩، دار المعارف، مصر.
- عبد الحميد : د أحمد مختار (٢٠٠٨) :معجم اللغة العربية المعاصرة ، ط ١، عالم الكتب .
- عبد النور: جبور،(١٩٧٩) : المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت.
- عدس: عبد الرحمن، (د.ت):المدخل الى علم النفس، ط٣ ، دار الفكر، عمان.
- العشماوي: د. محمد زكي ،(١٩٨١): موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي، دار النهضة العربية، بيروت .
- العلاق: علي جعفر، (١٩٩٨): مملكة الغجر ، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ناصف: مصطفى (د.ت): دراسة الأدب العربي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- النوال: د. حامد عبده،(١٩٨٢): السخرية في أدب المازني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة .
- اليحيى: فرحان (٢٠٠١):أزمة المواطنة في شعر الجواهري، منشورات اتحاد كتاب العرب، سوريا.

المجلات والدوريات:

ـ الكردي، محمد علي، النقد الجديد والايديولوجيا، مجلة فصول، مصر، ع١،٤ أكتوبر ١٩٨٥.